من كل علم نافذة إلى التوحيد

هل يترك مالك الملك الإنسان غافلًا عن وظيفته؟(1)

لماذا وُهبنا رأس مال العمر؟

[1]صلاح الدين ألتون داغ
(Salahattin Altundağ)

لنتصور إنسانًا يستطيع أن يقدم حسابًا عن كل قرش من المال الذي أُعطي له. فهو يعلم على وجه الدقة كم أخذ، وفيمَ أنفق، وكم بقي لديه. ولكنه إذا سُئل سؤالًا واحدًا لم يجد له جوابًا:

لِمَ أُعطيتَ هذا المال؟

فقد تكون الحسابات كلها صحيحة، ومع ذلك يكمن الخطأ الحقيقي في الجواب عن هذا السؤال بالذات.

وقد نواجه حالة مماثلة في السجلات المحاسبية لإحدى المنشآت. فقد تُسجَّل الإيرادات والمصروفات والالتزامات والذمم المدينة تسجيلًا كاملًا، وتكون جميع النفقات موثقة بالمستندات، ومع ذلك تُستخدم الموارد المخصصة لنشاط معين في غير الغرض الذي خُصصت له.

الأرقام صحيحة، والمستندات في مواضعها، ولكن العمل المنجَز لا يتفق مع الغاية التي خُصصت الموارد من أجلها.

ذلك أن معرفة أوجه استخدام الموارد ليست هي معرفة الغاية من تخصيصها. فالسجلات المحاسبية تُبيّن المعاملات التي أُجريت، أما تقييم مدى توافق تلك المعاملات مع الوظيفة الموكلة فيقتضي أيضًا معرفة الغرض من تخصيص الموارد والمعايير ذات الصلة.

وهكذا يتبين لنا أن صحة الحساب شيء، وأداء الوظيفة على الوجه الصحيح شيء آخر.

يضرب الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في *الكلمة الحادية عشرة*، وهو يبين غاية خلق الإنسان، مثلًا يدعونا إلى التأمل في هذا الفرق.

أعطى رجل أحد خادميه عشرين قطعة ذهبية، وأمره أن يشتري بها لباسًا لنفسه. ثم أعطى خادمه الآخر ألف قطعة ذهبية، ووضع في جيبه ورقة تتضمن بعض التعليمات، وأرسله للتجارة. غير أن الخادم الثاني أنفق رأس ماله كله في شراء لباس، دون أن يقرأ الورقة التي في جيبه (النورسي، 1989، ص 127).

فهناك رأس مال، ومالك أعطى ذلك المال، ووظيفة يُراد أداؤها. ولكن الخادم لم يعرف ما ينبغي له أن يقوم به، لأنه لم يقرأ التعليمات التي أُعطيت له، واقتدى بالخادم الأول، فأنفق رأس ماله في غير الغاية التي أُعطي من أجلها.

ويطبق الأستاذ النورسي هذا المثل على حياة الإنسان، مبينًا أن ما وُهب الإنسان من عمر وعقل وإرادة واستعدادات لا تُحصى، لم يُعطَ له لمجرد تلبية الحاجات العابرة للحياة الدنيا.

[1] الدكتور صلاح الدين ألتون داغ
جامعة دجلة، المدرسة المهنية العليا للعلوم الاجتماعية بديار بكر
قسم المحاسبة والضرائب
٢١٢٨٠، ديار بكر، تركيا
ORCID: https://orcid.org/0000-0002-6198-7959

كنا قد تساءلنا في مقالنا السابق: «هل امتلاك الشيء يعني إيجاده؟» وبحثنا، انطلاقًا من مفاهيم الملكية والحقوق الاقتصادية والسيطرة في علم المحاسبة، عن الفرق بين ملكية الإنسان والملكية الحقيقية لله سبحانه وتعالى. كما تأملنا، في ضوء دلائل التوحيد التي أقامها بديع الزمان، حقيقة أن الله سبحانه هو المالك الحقيقي والخالق لكل موجود في الكون.

وها نحن الآن أمام مسألة أخرى تقودنا إليها هذه الحقيقة.

ما دام الإنسان نفسه في مُلك الله، وليس هو الذي أوجد حياته وعقله وإرادته وسائر استعداداته من العدم، فلأي غاية وُهبت له هذه النعم الثمينة؟ ولأي مقصد ينبغي له أن يستخدم رأس مال عمره؟

والأهم من ذلك: من أين يعرف هذه الغاية؟

رأس مال عمر الإنسان وغاية خلقه

إن الخصائص التي خُلق بها الكائن الحي تدلنا على شيء من طبيعة حياته وحاجاته. فأجنحة الطائر، وزعانف السمكة، وجذور الشجرة تؤدي وظائف ضرورية لاستمرار الحياة.

ولكننا حين ننظر إلى خلق الإنسان نجد أنه قد زُوّد بأجهزة واستعدادات أوسع نطاقًا بكثير.

فالإنسان يرى، ولكنه يبحث أيضًا عن معنى ما يراه. ويسمع، ولكنه يتحرى صدق ما يسمعه. ويتذكر الماضي، ويفكر في المستقبل، ويتساءل عن وجوده. وعلى الرغم من أن عمره محدود، فإنه يفكر في الأبدية، ويبحث عن حقيقة العدل والرحمة والخير والشر.

فهل يمكن حصر غاية خلق إنسان زُوّد بالعقل والقلب والخيال والذاكرة والإرادة والوجدان في مجرد الأكل والشرب وتأمين المأوى واستمرار النسل؟

يبين الأستاذ بديع الزمان في *الكلمة الحادية عشرة* أن الغاية من إيداع هذه الأجهزة والاستعدادات في الإنسان ترجع إلى أساسين. وفيما يأتي ترجمة لهما من الأصل التركي:

الأول: أن تُشعركم هذه الأجهزة بكل صنف من أصناف النعم التي أسبغها عليكم المنعم الحقيقي سبحانه، فتحملكم على شكرها. وعليكم أن تستشعروا تلك النعم، وتقابلوها بالشكر والعبادة.

الثاني: أن تُعرّفكم هذه الأجهزة بجميع أقسام تجليات الأسماء الإلهية المقدسة في العالم، وأن تذيقكم إياها واحدًا واحدًا. وعليكم أن تعرفوها عن طريق التذوق وتؤمنوا. (النورسي، 1989، ص 126؛ وانظر أيضًا النورسي، د.ت.، الكلمة الحادية عشرة)

إن الحواس والاستعدادات التي وهبها الله للإنسان ليست وسائل للانتفاع بالنعم فحسب، بل هي وسائل لمعرفة صاحبها الحقيقي أيضًا. فالإنسان يدرك قيمة النعم التي أُسبغت عليه، ويعرف أنها إحسان من الله سبحانه، فيؤدي شكرها. ويتأمل كذلك ما في الموجودات من بديع الصنعة والجمال والحكمة، ساعيًا إلى معرفة تجليات الأسماء الإلهية فيها.

إننا نرى جمال زهرة بأعيننا، وندرس تركيبها بعقولنا، وتتأثر قلوبنا بجمالها. فإذا تجاوزنا في تفكرنا خصائصها المادية، وبحثنا عن المصدر الحقيقي لما في خلقها من بديع الصنعة، دلتنا تلك الزهرة على صانعها، أي على الله سبحانه وتعالى.

وهكذا تصبح الأجهزة الإنسانية، في مفهوم التوحيد لدى بديع الزمان، وسائل يتوصل بها الإنسان إلى معرفة خالقه.

وفي *الكلمة الثالثة والعشرين*، بعد أن يبين الأستاذ النورسي عجز الإنسان عند مجيئه إلى الدنيا وحاجته المستمرة إلى التعلم، يصل إلى هذه الحقيقة:

»يتضح من هذا أن وظيفة الإنسان الفطرية إنما هي التكمل بـ"التعلم"، أي الترقي عن طريق كسب العلم والمعرفة، والدعاء والعبودية» (النورسي، د.ت.، الكلمة الثالثة والعشرون).

فالإنسان يرتقي بالتعلم، ويتوجه إلى ربه بإدراك عجزه وحاجاته. وبينما ينمّي الاستعدادات التي وُهبت له، يسعى أيضًا إلى معرفة مالكها الحقيقي.

إن ما تقدم من استدلال يدلنا على أن لخلق الإنسان غاية، وأن النعم التي أُسبغت عليه تستوجب الشكر.

ولكن إدراك وجوب شكر النعمة شيء، ومعرفة الكيفية التي يريد الله منا أن نعبده بها شيء آخر.

فالعقل الإنساني يستطيع أن يدرك وجوب شكر الله الذي خلقه وأنعم عليه. ولكنه لا يستطيع أن يحدد بنفسه جميع تفاصيل العبادات التي ينبغي له أن يؤدي بها شكره، ولا الأعمال التي يرضاها الله، ولا ما أمر به أو نهى عنه على وجه التفصيل.

فلا بد له من العلم بذلك.

ولكن من أين يتلقى الإنسان هذا العلم؟

المراجع

النورسي، سعيد. (د.ت.) *الكلمات*. (ترجمة إحسان قاسم الصالحي). موقع رسائل النور https://said-nursi.com/read_alnoor_messages/kalemat/ .

النورسي، سعيد .(1989) *سوزلر [الكلمات]*. Envar Neşriyat .

ملاحظة حول الترجمة : اعتُمد النص التركي أصلًا لترجمة هذا المقال إلى العربية، مع مراعاة المصطلحات التي استعملها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي في ترجمته لرسائل النور. وتُرجم النص المتعلق بالأساسين الواردين في الكلمة الحادية عشرة ترجمة مستقلة من الأصل التركي، مع الرجوع إلى ترجمة الصالحي العربية. أما الاقتباس الوارد في الكلمة الثالثة والعشرين فنُقل من ترجمة الصالحي المنشورة على موقع رسائل النور، مع توحيد علامات التنصيص. وتشير أرقام الصفحات المذكورة في المقال إلى الطبعة التركية المعتمدة في المراجع.

SALAHATTİN ALTUNDAĞ